إخوتي الأصاغر

للقديس غريغوريوس النيسي

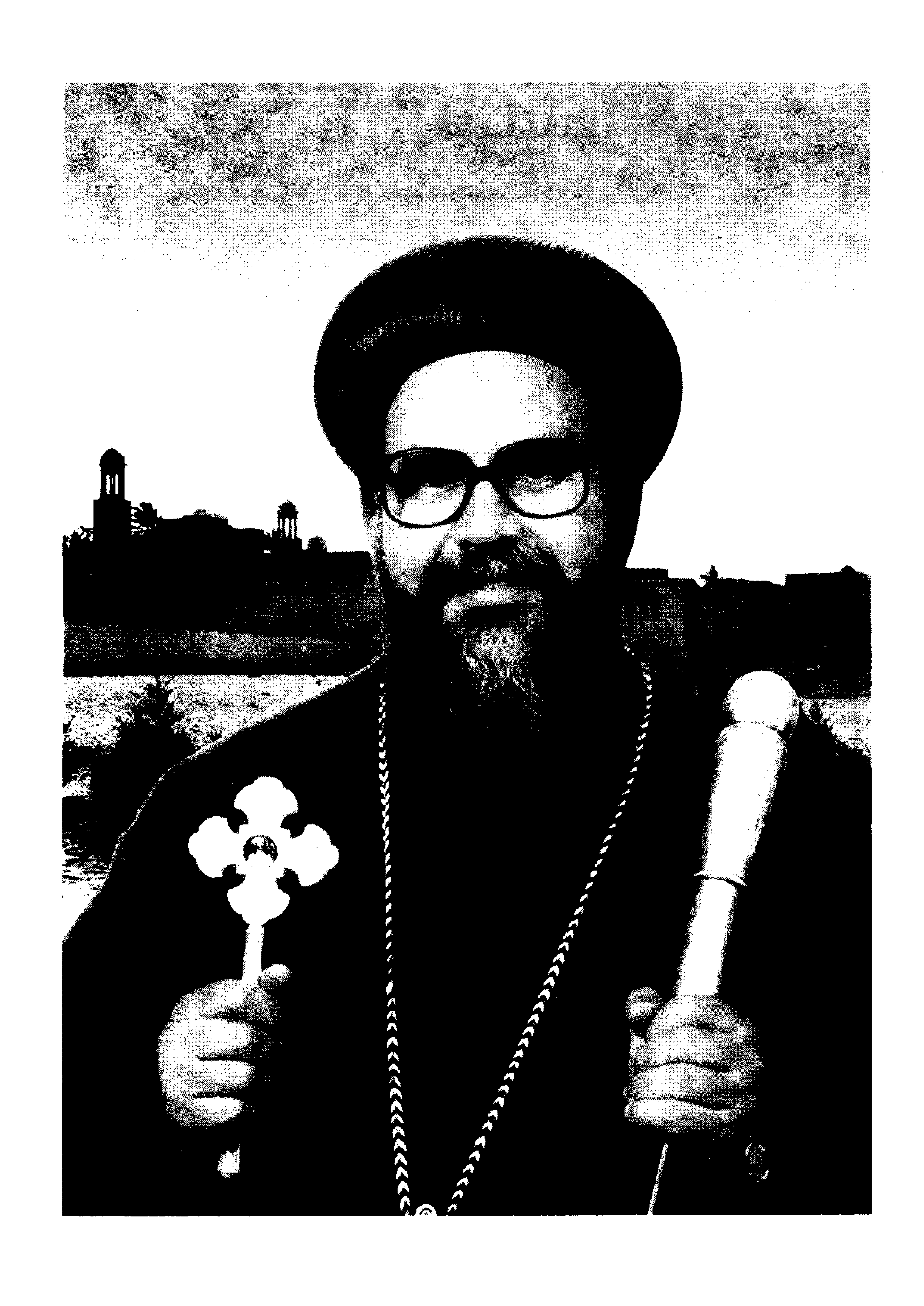


مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا متاؤس
أسقف دير السريان



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



نيافــة الحَــبر الجليــل الأنبــا متــاؤس

أسـقف ورئيـس ديـر السـيدة العـذراء (السـريان) العامـر

بِاسم الآب والابن والروح القدس الله الواحد. آمين.

تقديم

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

نُقدِّم لك أيها القارئ العزيز هاتين العظتين القيمتين للقديس غريغوريوس أسقف نيصص.

الأولى : بعنوان عمل الرحمة.

والثانية: بعنوان إخوتي الأصاغر.

قام بترجمتهما أحد الأخوة المُباركين لمنفعة أبناء الكنيسة، وكلاهما يتكلم عن عمل الرحمة والمعاملة الحسنة المترفقة للفقراء والمحتاجين والمرضى والمعدمين الذين سمَّاهم السيد المسيح " إخوته الأصاغر " حين قال: " الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم " (مت ٢٥:٤٠).

وقد سمَّاهم مُعلِّمنا بولس الرسول: " فقراء القديسين " كما كتب في رسالته إلى أهل رومية: " لأن أهل مكدونية وآخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم " (رو١٥:٢٦). وقد نقل بولس الرسول بنفسه هذه العطايا إلى الكنيسة في أورشليم لتوزيعها على الفقراء، وكتب في نفس الإصحاح: " جاهدوا معي في الصلاة من أجلي إلى الله، ... لكي تكون خدمتي لأجل أورشليم مقبولة عند القديسين " (رو ١٥: ٣٠ ـ ٣١).

معروف أن الصدقة وعمل الرحمة هيَ أولى أركان العبادة المسيحية كما علّمها لنا الرب يسوع في عظته على الجبل: " متى صنعت صدقة ... متى صليت ... متى صمت " (مت ٦)، كما قال الرب: " لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء " (مت ٦: ١٩ ـ ٢٠)، ونصنع كنوزاً في السماء حينما نعطي الفقراء فيحملون عطايانا ليصنعوا بها كنوزاً في السماء لحسابنا.

الله يُعوِّض مَن له تعب، وينفع بهذه العظات كل مَن يقرأها ليزداد في عمل الرحمة وعمل الخير.

بشفاعة أمنا العذراء مريم، والقديس غريغوريوس النيسي، وصلوات أبينا المُكرَّم البابا الأنبا شنوده الثالث،

ولعظمته الشكر دائماً.

صوم العذراء ٢٠٠٥

الأنبا متاؤس

أسقف دير السريان العامر

مقدمـــة*

****

يُقدِّم هذا الكتيب عظتين للقديس غريغوريوس النيسـي†، الأولـى بعنوان " عمل الرحمة " والثانية بعنوان " إخـوتي الأصـاغر "، ينشـران معاً لأن موضوعهم واحد وهو تقـديم الرحمـة لإخـوة يسـوع الأصـاغر. العظة الأولى تستعرض العناية بالفقراء والمرضى، بينما العظة الثانية تصف بشـيء مـن التفصيل واقـع المرضـى المُبعَّـدين مـن المجتمـع بسبب الأمراض المسـتعصية وخصوصاً مرضى الجذام.

يمكننا أن نرى من بداية العظة الأولى أن ق. غريغوريوس ألقى هذه العظة عند بدء موسـم الصوم، فالصوم في نظره لا قيمة له ما لم يكن مصحوباً بأعمال الرحمة. يرى المحقق دانيلو Jean Danielou أن العظة الأولى ألقيت أثناء الصوم الأربعيني عام ٣٨٢م، ويفترض أن الثانية ألقيت عام ٣٨٤م. أمَّا المُحقق برنارد Jean Bernardi فيرى أن كلاهما ألقيا في تعاقب قريب نسبياً نظراً لأن كلاهما يأخذ نقطة انطلاقة من نفس الفقرة من إنجيل متى (مشـهد الدينونة الأخيرة في مت ٢٥: ٣١-٤٦)، وبالرغم من أن العظة الثانية لا تشـير إلى

---

* تم تعريب هذه المقدمة (بتصرف) عن مقدمة الترجمة الإنجليزية للأب ريتشارد مكامبلي.

† القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٥م - ٣٩٤م) هو الشقيق الأصغر للقديسة ماكرينا وللقديس باسيليوس الكبير (رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك). كان مُفكّراً وفيلسوفاً وعالماً لاهوتياً كما كان من أسمى النفوس روحانيّةً، في عام ٣٧١م رُسم أسقفاً - رغماً عنه - على بلدة نيصّا (على نهر الهاليس بتركيا)، وبسبب استقامة إيمانه نفي عن كرسيه بواسطة الإمبراطور الأريوسي فالنس، وبعد وفاة الإمبراطور عام ٣٧٨م عاد إلى كرسيه، وفي مطلع عام ٣٩٧م تنيح ق. باسيليوس فكان على غريغوريوس أن يقوم بجميع مهام أخيه الرهبانية واللاهوتية والكنسية وقد قام بها على أكمل وجه، وكان له دور فعال في المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية عام ٣٨١م وخلاله اتجهت إليه الأنظار كأحد قادة الكنيسة العظماء في الشرق، وتحتفل الكنيسة القبطية بتذكاره يوم ٢٦ هاتور الموافق ٥ ديسمبر من كل عام.

الصوم إلا أن استخدام نفس فقرة الإنجيل لابد وأن كان حياً في أذهان الذين سمعوا العظة الأولى، بالإضافة إلى أن المؤمن المسيحي قد تعود على سماع تلك الفقرة كل سنة عند بداية الصوم الأربعيني.

نرى ق. غريغوريوس في هاتين العظتين كأسقف أمين وكراع يعمل لخير القطيع المؤتمن عليه. لا نجد هنا خيال واسع ولا تأمل لاهوتي وفلسفي عميق كما يتميّز أسلوبه في شرح وتفسير الكتاب المقدس، لكننا نجده مهتماً اهتماماً كبيراً بالكيفية التي يجب أن يسلك بها المسيحيون في أيامه تجاه الأشخاص الذين يعانون من المآسي والتشرد.

في عام ٣٧٧م. تحت حكم الإمبراطور فالنس Valens غزا القوطيون Goths بلدة تراس Thrace، مما تسبب في تشرد الكثيرين. كان ق. غريغوريوس يشير إلى هؤلاء المُعدمين نتيجة للاحتلال، الذين كانوا يهيمون في المزارع بعد أن استؤصلوا من جذورهم.

كان ما يشغل ق. غريغويوس كراع كيفية الاهتمام بأولئك المساكين. ذكر أن الصوم هو وسيلة من أفضل الوسائل لإظهار المحبة المسيحية، إلا أنه أشار إلى أن الصائم قد يبقى في ميله نحو الجشع بالرغم من تقشفه الجسدي، مثل يهوذا الذي " صام مع الأحد عَشر رسولاً ولكنه لم يُحجم عن الجشع وفقد خلاصه بالرغم من صومه ". نجد أن ق. غريغوريوس مُهتم أكثر بالنقاوة والاعتدال مقابل التقشف، فما " الفائدة من صوم بدني ما لم يتنقَّى العقل؟ ". نرى أهمية نقاوة العقل أيضاً في افتتاحية العظة كشرط أساسي لتقديم دروس أكثر تقدماً، ونرى أن " الصوم هو أساس الفضيلة "،

وأن المسئولين عن وضع هذه الأساسات هم " قادة هذه الكنيسة مُعلمي الفضيلة الذين يحيون في تقوى حقيقية ".

يستخدم ق. غريغوريوس الآيات المقتبسة من سفر إشعياء كآيات محورية للتعليم عن الصوم: " *أليس هذا صوماً أختاره: حَلّ قيود الشر. فَكّ عقد النير، وإطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خُبزك، وأن تُدخل المساكين التائهين إلى بيتك؟* " (إش ٥٨: ٦ ـ ٧). نجد في هذه الآية تلازم ضروري بين الصوم وحياة مُكرسة لمؤاساة الفقراء. هذا النص يُقدِّم السياق العام لبقية العظة التي تمتد لتصف معاناة المعوزين بتفصيل شديد.

يذكرنا ق. غريغوريوس بأننا كثيراً ما نكون أمام حالتين متعارضتين: " حالة شبعك الزائد وحالة جوع أخيك "، وبناءً على ذلك يؤكد أن المسيحيين يجب أن يكونوا معتدلين في مثل هذه الأشياء كتناول الطعام واستخدام الثروة، وأن يعطوا من الزائد الذي عندهم، " أعْطِ الفقراء أي شيء تستهلكه بجشع ". لا ينصحنا ق. غريغوريوس بأن نرذل الخيرات ونهرب منها لكنه يريدنا أن نحسن تدبيرها، إذ أن الله يهب المسيحي المستنير خيرات لكي يكون بدوره كريماً.

يضع ق. غريغوريوس السيد المسيح في مركز كل عمل من أعمال الرحمة، إذ " أن مخلصنا اتخذ هيئة إنسان، أحب البشر وأنعم علينا بشخصه لكي ما يخزي الشخص الغير مبالٍ وأولئك الذين يشمئزون من الفقراء ".

تواضع السيد المسيح في مجيئه الأول هو الذي يُنصِّب كرسي القضاء في مجيئه الثاني، سيأتي مع " أعداد لا تُحصى من الملائكة. وبعد أن يجلس الملك على كرسي مجده تنقاد إلى محضره كل

قبيلة وكل شعب تحت الشمس فيقف كافة الجموع أمام كرسي الدينونة "، ويُجازى كل واحد بحسب أعماله وسلوكه بالمحبة. يستشهد ق. غريغوريوس بهذا المشهد من إنجيل متى في منتصف العظة الأولى أمَّا في الثانية فيُقدِّمها كمدخل للعظة.

العظة الثانية ـ كما يظهر من عنوانها ـ تُفصِّل كلمات السيد المسيح: *كنت جوعاناً، عطشاناً، غريباً، عرياناً، مريضاً ومحبوساً ... " بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم "*. يُشدد ق. غريغوريوس على التطبيق العملي للحياة المسيحية المؤسس على هوية السيد المسيح السرية والقريبة مع المحتاجين. أكد على هذه الفكرة الرئيسية بتقديم قصة السامري الصالح من إنجيل لوقا وكيف أنه أظهر رحمة للرجل الذي جُرح بواسطة اللصوص. لاحظ أن العظة الثانية تتكلَّم عن انتماء السيد المسيح للجنس البشري وللمحتاجين بصورة خاصة، إذ أن " رب الملائكة ملك السماوات القدوس صار إنساناً من أجلك ولبس هذا الجسد حتى بواسطة لمسته الخاصة يشفي مرضك ويمنح جسدك الفاسد حياة ". هذا الإتحاد العجيب الذي فيه يوحِّد السيد المسيح نفسه مع البشرية يُقدِّم لنا مثالاً لكي ما نُظهر شفقة نحو شركائنا في الإنسانية.

تتكلم العظة الأولى عن انتماء السيد المسيح للمساكين فتقول أن عمل الرحمة ينادي الجميع للترافق مع الله، كما ينادي البوق بصوته المدوي المتنافسين لكي ينالوا الجوائز، إذ أن " عمل الرحمة هو بالحقيقة أسمى أنواع التمجيد إذ أنه ترافق مع الله، محبوب لصلاحه وبه تظهر قرابتنا له، فالله هو أصل ومنبع كل فضائلنا وأعمالنا الصالحة المقدمة للجميع ".

بعد ذلك ينتقل ق. غريغوريوس ليتكلَّم عن هبات الله للإنسان والحيوان، ثم يذكر جشع الإنسان نحو الاهتمامات الجسدية التي بدورها تعطل محاكاتنا للرب الخالق. لاحظ أننا مدعوون ليس فقط لمحاكاة الله الظاهر في الجسد الذي كان يجول يصنع خيراً بل أيضاً الله كخالق الذي يفيض بكل سخاءٍ خيرات على خليقته. الرحمة والرأفة هما أهم مُميزات هذه المحاكاة، حتى " نجلب إلى الحياة صورتنا الأصلية الغير فاسدة التي تتجاوز تخيلنا "، هذه الصورة التي تختص بتلك " الحياة المباركة الأبدية غير القابلة للفساد التي لا يمكن لنا الآن أن ندرك أفراحها وبهجتها ".

إن هدف هذه العظة هو ببساطة تعليم الناس عن هذه الصورة الأصلية التي يمكن تحقيقها من خلال هذه الوسائل العملية كالصوم وعمل الرحمة. يناشدنا ق. غريغوريوس بأن ندرك عضويتنا المشتركة في الجنس البشري الواحد حتى نتجنب أي ميل نحو تفخيم الذات.

إحدى الآيات الرئيسية المُلهمة التي كثيراً ما يستعملها ق. غريغوريوس آية بولس الرسول في (١كو ١٥:٥٣)*، فيقول: " إننا بملء الرجاء نتوقع الفرح العجيب حينما نخلع هذا الجسد الذي يسود عليه الفساد ونلبس عدم الفساد "، فعندما تركز على طبيعتك الفاسدة تخفق في التطلع لتلك الطبيعة الخالية من الفساد، إذ أن الطبيعة القابلة للفناء والتحلل سوف تتجدد وتتحول لطبيعة خالدة غير قابلة للتحلل، لذلك يجب أن لا نركز اهتمامنا على واقعنا الخارجي المُتقلِّب لأنه سيتهاوى ويذوب.

---

* " لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت " (١كو ١٥:٥٣).

تصف العظتان بتفصيل دقيق كل تلك الخصائص المضادة لحالة عدم الفساد مثل الطمع وحب الامتلاك، تلك الخصائص التي تنتمي إلى " طبيعة هذا الزمن الغير مستقرة التي تشبه النهر المندفع الذي يحمل كل شيء أمامه للدمار ". حالة عدم الاستقرار هذه تضع المسيحي في معضلة: كيف يحل ورطة البؤس الإنساني الناتجة من رغبات الإنسان المتمركزة حول الذات؟ هناك في المُقابل معضلة أخرى تتمثّل في عجزنا الإدراك بوضوح حضور السيد المسيح معنا الآن (" ها أنا معكم كل الأيام ") ومجيئه الثاني، لكن ليس تعالي الله غير المدرك هو الذي يشغل ق. غريغوريوس، بل هو مهتم بالأكثر بتقديم " طريق الحياة " الذي يتمثل في خدمة شخص السيد المسيح الظاهر في المسجون والمريض والمسافر والغريب والعطشان والجائع. فالتناقض بين البؤس الإنساني وتعالي الله غير المدرك يُحل من خلال مراعاة الوصايا وأعمال المحبة التي بواسطتها يتجلّى في الإنسان أصله المقدس.

يختم ق. غريغوريوس عظته الأولى بالإشارة إلى الطبيعة الزائلة للحياة الإنسانية، ويبتغي أن ينال سامعوه " الحياة التي لا عيب فيها في تلك المدينة السماوية ". قارن هذه الخاتمة مع خاتمة العظة الثانية التي تُشبِّه وطننا النهائي بالميناء. لاحظ أن خاتمة العظة الأولى بذكرها الوطن السماوي تعمل كمقدمة للعظة الثانية التي تبدأ بمشهد يوم القيامة من إنجيل متى ٢٥، إذ أن الفشل في الحياة بحسب معايير الحياة المسيحية يؤدي إلى الدينونة أمام كرسي العدل الإلهي.

العظة الأولى

عمــل الرحمــة

" ألـيس هـذا صـوماً أختـاره: حَـلّ قيـود الشـر. فَـكّ عقد النير، وإطلاق المسـحوقين أحـراراً، وقطـع كـل نيـر. ألــيس أن تكســر للجـائع خُبــزك، وأن تُـدخل المسـاكين التائهين إلى بيتك؟ " (إش ٥٨: ٦ ـ ٧)

النمو في المعرفة الروحية:

إن قادة هذه الكنيسـة مُعلِّمي الفضيلة الـذين يحيـون فـي تقـوى حقيقيـة، يشـبهون إلـى حـد كبيـر المعلمـين الـذين يُعلِّمـون التعلـيم الأساسـي، ويمكن تشـبيههم أيضاً بالأشـخاص الذين يعتنون بالأطفـال الصغار الذين لـيس لـديهم القـدرة بعـد علـى نطـق الكلمـات بوضـوح. وحيث أن الوالدين لا يتوقعـون أن تقـوم المدرسـة بتعلـيم كـل شــيء لذلك نجدهم باسـتمرار يشـعرون بمسـؤولية تجـاه تنشـئة أولادهـم، يُعلِّمونهم نقش الحروف في الشـمع أولاً*، ثـم كتابـة أسـماءهم، ثـم يتابعون نموهم فـي المعرفـة، وبعـد فتـرة وجيـزة يتقـدَّمون بهـم إلـى المقاطع الصوتية ونطق الكلمات. هكذا وبنفس الطريقة نجـد أن قـادة الكنيسـة يُعلِّمون مستمعيهم أولاً أساسـيات المعرفة ثم ينتقلون بعـد ذلك إلى دروس أكثر تقدماً.

---

* حيث كانت هذه هي الوسيلة المتبعة في ذلك الوقت (القرن الرابع) لتعليم الكتابة للأطفال.

الصوم تعيَّن من أجل نقاوة الروح:

لقد وبَّخنا منذ يومين تلك اللذة التي تتعلق بالفم والبطن، وتحدثنا عن منفعة الامتناع عن أكل اللحم، وشرب الخمر الذي يُسبب الضحك، والذي يؤدي إلى الانغماس في الملذات الحسية، والشهوة التي تعقب الأكل الكثير والإفراط في الشرب. لقد تكلَّمت في السابق بما يكفي عن هذه الأمور، وسلوككم يؤكد أنكم قد التفتم لمشورتي، وبما أنكم قد احتفظتم بتعاليمي السابقة في القلب تعالوا بنا الآن ننتقل إلى تعاليم أكثر تقدماً.

الصوم له تأثير روحي إذ يجعل الإنسان يرفض الشر، فهو وسيلة يمكننا بها ضبط انجذابنا للطعام. إذن فلتصُم عن الشر، وامتنع عن الشهوات الغير نافعة، ولا تطلب الربح من أي سلوك منحرف، واذبح جشع محبة المال*، ولا تقتني لك ثروة بالقوة والاغتصاب.

هل تعتقد أن هناك فائدة من الامتناع عن أكل اللحم، إذا كنت تؤذي أخاك؟ نفس الشيء ينطبق على سلوكك الظالم تجاه الفقراء، ما أهمية هذه التقوى التي تُظهرها بشرب الماء فقط إذا كنت في نفس الوقت تخطط للضرر وتشرب دم الظلم؟

إن يهوذا صام مع الأحد عشر رسولاً، ولكنه لم يُحجم عن الجشع وفقد خلاصه بالرغم من صومه. والشيطان أيضاً الذي لا يأكل

---

* " لا يقدر أحد أن يخدم سيِّدين، لأنه إمَّا أن يُبغضَ الواحد ويُحب الآخر، أو يُلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال " (مت٦: ٢٤).

(فالكائن الروحي لا جسد له) فقد كرامته بسبب التعدي ـ لا أحد من الشياطين يأكل أو يشرب بإفراط ولا يدان بسبب تعاطي شراب مؤثر (لأن طبيعتهم الغير جسدية ليست في حاجة إلى غذاء) ـ ومع ذلك هم يسرعون في الهواء ليلاً ونهاراً كخُدام مُتحمِّسين يحتالون ضدنا. ولكن إذا وحَّدنا أنفسنا مع الله ورفضنا تعدياتهم فإنهم يبتعدون بعيداً مملوءين غيرة وحسداً.

ينبغي إذن على المسيحيين أن يتدربوا على محبة الحكمة، ويجب على النفس أن تهرب من الضرر الناتج من فعل الشر. إن إظهار الاعتدال فيما يتعلق بشرب الخمر يجعلنا نتجنب السقوط في الخطية. إنني أؤكد بشكل عام أن لا شيء مما نتناوله إن كان ماء أو زيت أو أي غذاء آخر ـ من غير دم ـ يمكنه أن يُشابه غذاء الروح، فالغذاء له مظهر خارجي وتكوين داخلي، أمَّا **الصوم فقد تعيَّن من أجل نقاوة الروح**. إن كان الشخص يُنجِّس نفسه باختياره وبأفعال أخرى مشينة فلماذا نضيع أوقاتنا في شرب ماء فقط ؟ **ما هيَ الفائدة من صوم بدني ما لم يتنقى العقل**؟ إن مركبة خفيفة الحركة تجرها أربعة خيول ليست لها فائدة بدون لجام. ما هيَ المنفعة من سفينة سريعة ما لم يوجِّهها مدير دفة رزين؟ **إن الصوم هو أساس الفضيلة**، فكما أن أساس البيت وعارضة قعر السفينة ليس لهما فاعلية ولا نفع إن لم يكن قد تم تشييدهما بمهارة وصلابة شديدة، هكذا التقشف هو غير كافٍ إن لم يرافقه القيم الأخلاقية اللائقة.

فلنجعل خوف الله يُعلِّم اللسان أن يتكلمِ في الوقت المناسب ولا يتفوه بألفاظ الغرور. إن فعلنا ذلك سوف نعرف الوقت المناسب والقدر المناسب للكلام وما هيَ الكلمة الضرورية والإجابة الملائمة، ونتعلم أيضاً ضرورة الحديث بتواضع، ولا نتحدث بتبجح بل نستخدم لغة مُهذَّبة. يمكننا أن نتحكم في هذا العضو الصغير (اللسان) بإدخال لجام للفم، آنذاك سوف لا يتكلم بعد بجموح وبأسلوب مُنفلت، اجعل الفم ينطق بالتمجيد لا بالافتراء، اجعله يُرنِّم لا أن يلعن، ينطق بالتسبيح لا أن يثرثر، اجعل اليد الطائشة (التي تعتدي على الغير) تُكبح بشدة بواسطة تذكر الله. لنصم إذن لأجل هذه الغايات لأن حملنا المسيح قد شُتم ولُكِمَ على وجهه* وعُومل بكل ازدراء وسُمِّر على الصليب.

يجب علينا كتلاميذ للمسيح أن لا نُظهر (مع الصوم) نفس السلوك الخاطئ الذي كان للشعب اليهودي قديماً، لأننا لو فعلنا ذلك ستنطبق علينا كلمات إشعياء: *" ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون، ولتضربوا (المسكين) بلكمة الشَّرِّ"* (إش ٥٨:٤)، لكن لنتعلم الأعمال النقية الخاصة بالصوم من هذا النبي: *" أليس هذا صوماً أختاره: حَلّ قيود الشر. فَكّ عقد النير، وإطلاق المسحوقين أحراراً، وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خُبزك، وأن تُدخل المساكين التائهين إلى بيتك"* (إش ٥٨ : ٦ ـ ٧).

* " فابتدأ قوم يَصقون عليه، ويُغطُّون وجهه ويلكمونه ويقولون له: تنبأ. وكان الخدام يلطمونه " (مر١٤ :٦٥)، " ولَمَّا قال هذا لَطَمَ يَسُوعَ واحدٌ من الخدام كان واقفاً، قائلاً: أهكذا تُجاوب رئيس الكهنة " (يو١٨ :٢٢).

أعْطِ المحتاج من وفرتك:

الآن هو وقت مناسب لكي تكون غير غافل عن المحتاج والعريان، لأن هناك حشد من المقيدين على أبوابنا، ليس هناك أي نقص في الغرباء والطوَّافين، والأيد الملتمسة للإحسان على الدوام ممتدة، فكل هؤلاء البشر مسكنهم في العراء والنُزل والساحات العامة والطرقات ومواضع الأسواق المهجورة، يسكنون الكهوف مثل البوم والغراب الأسود* ويرتدون ملابس رثة، يتنبه لهم المُزارع ويتعطف عليهم. إن سقط في طريقهم طعام ينقضُّون عليه، تُقدم لهم الينابيع مياه للشرب، وتصير جحور الأرض لهم مخازن، فهم لا يتركون شيئاً يفقد بل يحفظونه بحرص شديد. رُكب متلاصقة معاً تُشكل مائدة وسطح الأرض هو فراشهم. نهر أو بركة موهوبة مجاناً من الله تصير لهم حماماً بلا إنشاء. لم تكن حياة ذاك الذي يطوف في الحقول هيَ هكذا منذ البداية بل أتت فقط نتيجة للنكبات والعوز.

الشخص الذي يصوم هو مُزوَّد باحتياجات الحياة الضرورية ـ هذا مُبرر كاف لكي نكون كرماء نحو إخوتنا ـ **أعطِ الفقراء أي شيء تستهلكه بجشع. اجعل الخوف المستوجب لله يقدم لك المكافأة. تدرَّب على ضبط للنفس بشكل صحيح مظهراً تعقلاً أمام الحالتين المتعارضتين: حالة شبعك الزائد وحالة جوع أخيك**. إن الأطباء يؤدون عملهم بطريقة مماثلة، يفرغون من بعض المرضى سوائل ويعطونها لمرضى آخرين حتى يحافظون بالتفريغ

---

* " أشبهت قوق البرية. صرت مثل بومة الخرب " (مز ١٠٢ : ٦).

والإضافة على صحة الاثنين*. استمع جيداً إلى هذه النصيحة الحسنة. اجعل الصواب يفتح أبوابك على مصراعيها، اجعل نصيحة المعوزين تؤثِّر في الأثرياء. **لا تُغني المعوزين بكلام الجدل بل أعطي المُحتاج من وفرتك.**

علاوة على ما ذكرناه الآن هناك الكثير من الفقراء والمُعدمين، ليتحمل كل منا بعض الآلام من أجل مساندة القريب. **لا تجعل شخصاً آخر يأخذ كنزك وعانق المحن كأنها ذهب. وكما تهتم بصحتك الشخصية وتوفِّر الأمان لامرأتك وأولادك وخَدَمك وكل مَن في بيتك، احتضن أيضاً آلام الفقراء.**

إن الشخص المُحتاج والمريض في نفس الوقت، هو شخص فقير على نحو مُضاعف، أمَّا الأشخاص البائسين الذين لهم صحة جيدة يستطيعون أن ينتقلوا من باب إلى باب، ويذهبون بكل حرص إلى الأغنياء ويتوسلون صدقة من المارة عند تقاطع الطرق، ولكن أولئك المبتلون بالمرض مقيدين في فراشهم ومطروحين في الزوايا كما طرح دانيال في الجب، هم يتطلعون إلى رأفتك واهتمامك بالفقراء وكأنهم ينتظرون حبقوق†. بذرة الرحمة تنتج ثمراً كثيراً، ازرعها وستملأ بيتك بكمية هائلة من النِّعم.

---

* يحدث هذا عند نقل الدم.

† " وكان حبقوق النبي في أرض يهوذا وكان قد طبخ طبيخاً وثرد خبزاً في جفنة وانطلق إلى الصحراء ليحمله للحصادين. فقال ملاك الرب لحبقوق: احمل الغذاء الذي معك إلى بابل إلى دانيال في جب الأسود " (دا١٤: ٣٢ - ٣٣).

لعلك تقول: " أنا فقير " ـ بالرغم من ذلك أعطِ مما عندك. لا يطلب الله منك ما يفوق مقدرتك، فأنت يمكنك أن تعطي خبزاً، وغيرك يقدم شراباً من الخمر، وآخر ثوباً، وهكذا محنة شخص واحد تنتهي بهذه المساعدة المشتركة. موسى النبي لم يتقبَّل أموالاً لأجل خيمة العبادة من فرد واحد بل تقبَّل من الجميع*، فالبعض أحضر ذهباً كثيراً، وآخرون أحضروا فضة، بينما الفقراء قدَّموا جلود أو شعر ماعز. ألم ترى كيف أن تقدمة الأرملة فاقت تقدمة الرجل الغني؟ فهي أعطت كل ما عندها كل معيشتها†. لا تحتقر تقدمة الفقراء كأنها لا تليق، ضعها في الحسبان وتأكَّد أن قيمتها ثمينة. **إنَّ مُخلِّصنا اتخذ هيئة إنسان، أحبَّ البشر وأنعم علينا بشخصه لكي ما يُخزي الشخص الغير مُبالٍ وأولئك الذين يشمئزون من الفقراء.**

الخراف والجداء أمام كرسي المجد:

إن الخير الذي نتوقعه محفوظ لنا، وحراس ملكوت السموات (الملائكة) يفتحون أبواب الصلاح الإلهي (للأبرار) وأمام فاعلي الشر الأردياء يغلقونها، هم جديرون بالثقة في دفاعهم (عن الأبرار) ويُقدِّمون أعذاراً عنهم، وهم أيضاً يوجِّهون اتهامات بكل شدة (للأشرار) لا بالكلام لكن بالدلائل، إذ أن السيد المسيح يفحص قلوب

---

* " خذوا من عندكم تقدمةً للرب. كل مَن قلبه سَموحٌ فليأتِ بتقدمةِ الربِّ: ذهباً وفضَّةً ونُحاساً، وأسمانجونياً وأرجواناً وقرمزاً وبوصاً وشعر معزًى " (خر٣٥: ٥ - ٦).

† " فجاءت أرملة فقيرة وألقت فَلْسَيْن، قيمتهما رُبعٌ. فدعا تلاميذه وقال لهم: الحق أقول لكم: إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة " (مر١٢: ٤٢ - ٤٣).

الجميع* ويُعلن على الملأ حكمه بمنتهى الوضوح.

إن الوعظ المقدس الذي سمعتموه كثيراً يَصِف الدينونة المخيفة، ومن خلاله نرى ابن الإنسان آتياً من السماء وماشياً على السحاب وكأنه أرض، بينما تلازمه أعدادٌ لا تُحصى من الملائكة†. وبعد أن يجلس الملك على كرسي مجده تنقاد إلى محضره كل قبيلة وكل شعب تحت الشمس فيقف كافة الجموع أمام كرسي الدينونة، ثم يقسمون لمجموعتين: أولئك الذين عن يمين السيد المسيح يُدعون خراف أمَّا الذين عن يساره فيُدعون جداء ـ فأسلوبنا البشري يُمَكننا من رسم هذه المقارنة ـ هناك يتكلم الدَّيان، ويُجيب الملك على أولئك الذين كانوا كرماء‡، ويكافئ الأبرار الذين سلكوا بالمحبة أثناء حياتهم بملكوت السماوات، بينما يدخل الأشرار إلى النار الأبدية.

الكتاب المُقدَّس شرح كل هذا بتدقيق باستخدام مثال المحكمة، حتى نتعلَّم كيف يكون السخاء في الأعمال الصالحة. **الحياة الملائمة هيَ الحياة التي تصير فيها أماً للفقراء، مُعلِّماً للأغنياء، مثالاً للشباب، ملاذاً للمسنين، كنزاً للمحتاجين، منفذاً للمعدمين، وسنداً لجميع الذين في محنة من كل الأعمار.** وكما يحدث في مدرسة المصارعة عندما يُبوَّق بالبوق

* " وصلوا قائلين: أيها الرب العارف قلوب الجميع، عيِّن أنت من هذَيْن الاثنين أيًّا اخترته " (أع١: ٢٤).
" والله العارف القلوب، شهد لهم مُعطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً " (أع١٥: ٨).

† " ومَتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذٍ يَجلسُ على كرسيِّ مجده. ويَجتمع أمامه جميع الشعوب، فيُميِّز بعضهم من بعض كما يُميِّز الراعي الخراف من الجداء " (مت٢٥: ٣١ - ٣٢).

‡ " فيُجيبُ الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم " (مت٢٥: ٤٠)

فيُنادي جميع المتنافسين بصوته المدوي ويُحرِّك طموحهم لنوال الجوائز، هكذا أيضاً عمل الرحمة ينادي ويستحث الجميع، يُظهر الكرم تجاه الذين في محنة، يُجنِّب البلايا وفي نفس الوقت يُقدِّم الإغاثة. **عمل الرحمة هو بالحقيقة أسمى أنواع التمجيد إذ أنه ترافق مع الله، محبوب لصلاحه وبه تظهر قرابتنا له، فالله هو أصل ومنبع كل فضائلنا وأعمالنا الصالحة المقدمة للجميع.**

هبات الله صانع الخيرات ومحاكاتنا له:

خلق الله الأرض وجمال السماوات ودفء الشمس والبرد، ووضع الأوقات بشكل مُنظَّم جداً ـ مع أنه لا يحتاج هذه الأشياء ـ ويعمل على الدوام من أجل منفعة الإنسان كمُعيل له، فهو الذي يزرع كل شيء في وقته ويرويه بشكل عجيب، إذ يُعطي بذراً للزارع ويُنزل المطر من السحاب ويسكبه بوفرة على الحقول ـ كما قال إشعياء النبي* ـ وعندما يثمر الحصاد ويظهر النبات ترحل سحب السماوات ـ التي كانت معلقة فوقنا ـ وتمدُّ الشمس دفئها بأشعة شديدة حتى تنضج البراعم الجميلة. يوفِّر الله للإنسان الطعام بغنى، وينمي الكروم، ويزود كل أنواع الحيوانات أيضاً بالشراب في الوقت المناسب. هو يمنحنا أيضاً جلوداً صوفية للحماية وتغطية أقدامنا. إنك تستطيع أن ترى من خلال تقديمك الغذاء والشراب للجياع وتوفيرك الملابس للعُراة أن الله هو خالق كل هذه العطايا.

---

* " لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتُعطي زرعاً للزارع وخبزاً للآكل " (إش٥٥: ١٠).

إن كنـت ترغـب أن تفهـم كيـف يشـفي الله الشـخص المُبتلـي بالشر*، انتبه إذن لهذه الكلمات: مَن هو الذي علَّم النحلـة أن تعمـل بالشمع وتصنع عسلاً؟ مَن هو الذي يقطر زيت من الصنوبر والضراوة وشجر الصمغ؟ مَن هو الذي يُجفّف النبات العطري المستورد من الهند؟ مَن هو الذي أوجد الزيت بواسطة مجهود جسدي شاق؟ مَن هو الذي يُميِّز الجذور والأعشاب ويعلم أنواعهم؟ مَن هو الذي اخترع ببراعة أدوية الشفاء؟ مَن هو الذي يُفجِّر ينابيع مياه دافئة من الأرض، وجعل المياه الباردة والدافئة تتدفق من أجلنا لتبديد الجفاف والحريق؟ يمكننا الآن أن نستعير كلمات باروخ المناسبة: *" اهتدى (الله) إلى كل طريق للمعرفة وجعله ليعقوب عبده وإسرائيل حبيبه "* (باروخ ٣:٣٧). كذلك المهارات التي تتعلق بالنار وما لها علاقة بالمياه والتقنيات الأخرى العديدة، كلها مُعدة لخدمتنا بطُرق كثيرة. **الله إذن هو منبع وأصل كل سخاءٍ وهو الذي يُسدِّد كل احتياجاتنا بغنى.**

إن الكتاب المقدس يُعلِّمنا أن نحاكي الرب الخالق بكل غيرة، بالقدر الذي يستطيع فيه الكيان القابل للموت أن يضاهي قداسته وخلوده، لكن حينما نستولي على الأشياء لأجل متعتنا الشخصية ونختارها لأجل نهايتنا ونختزنها بأنانية فإننا بذلك نظهر خزياً. نحن لا نُظهر أي اهتمام بالمُصابين ولا نُقدِّم عوناً للفقراء. ما هذا السلوك المُخزي ! إنسان يرى إنساناً آخر يتضور

* يقصد ق. غريغوريوس بهذه الفقرة أن أعمال الله العجيبة واهتمامه الفائق بالإنسان وتسخير الخليقة لخدمته، إنما تعمل لأجل شفاء الإنسان المُبتلي بالشر إن تأمل فيها وأقدم على محاكاة الخالق في صلاحه ومحبته.

جوعاً ويفتقر إلى الحافز الذي يدفعه لسد رمقه!. مثل هذا الشخص الذي لا يعطي الآخرين لا يهتم بأمنه الخاص أيضاً، فهو للأسف يترك النبات سريع العطب أن يجف من نقص المياه ومع ذلك لا يعطيه للمحتاج، وكما أن المياه المتدفقة من أحد منابع الأنهار تسقي حقولاً كثيرة كذلك أيضاً كرم عائلة واحدة يكفي لمساندة العديد من الفقراء، أمَّا الإنسان ذو الطبع البخيل والحقود فيُشبه حجراً واحداً يصُدّ جريان مسار المياه.

صورتنا الأصلية الغير فاسدة:

يجب ألاّ ننشغل بالاهتمامات الأرضية، علينا فقط أن نعيش من أجل الله. إن الطعام يُعطي لذة بدخوله من جزء صغير من الجسم أي من الحلق، ومن ثم يدخل إلى المعدة ثم ينحلّ ويخرج من الجسم[*]. **أمَّا الرحمة والرأفة فهما صفتان محبوبتان تخصان الله، وعندما يقيما في شخص فإنهما يؤلهانه[†] ويختمانه بالإقتداء بالصلاح، فنجلب إلى الحياة صورتنا الأصلية الغير فاسدة التي تتجاوز تخيلنا.**

ما هو ذلك الذي نجاهد من أجله؟ (إنها الحياة الأبدية)، إذ إننا بملء الرجاء نتوقع الفرح العجيب حينما نخلع هذا الجسد الذي يسود

---

[*] " ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل إلى الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج؟ " (مت١٥:١٧).

[†] لا شك أن ق. غريغوريوس لا يقصد بالتأله هنا أن الكائن المخلوق يصير غير مخلوقاً، بل يقصد التحلي بالصفات - الرحمة والرأفة - التي تخص الله.

عليه الفساد ونلبس عدم الفساد*، ونحظى بهذه الحياة المباركة الأبدية الغير قابلة للفساد التي لا يمكن لنا الآن أن ندرك أفراحها وبهجتها.

حياة الترف وإخوة لعازر خارجاً:

أنت يا مَن أُنعم عليك الله بالحجة والعقل لكي تفسر الأمور الإلهية لا تنجذب إلى ما هو زائل، اضبط حياتك بالاختيارات الحكيمة. علينا أن نُخصِّص نصيباً للفقراء الذين يحبهم الله لأن ما نملكه ليس لنا وحدنا. الله أبونا كلنا هو الذي يملك كل شيء ونحن جميعاً أعضاء ننتمي إلى جنس واحد. إنه لأمر رائع جداً أن يقتسم الإخوة أفضل ميراثهم بالتساوي، فلو حاز أخ واحد على ثروة ما فبقية الإخوة أيضاً سوف ينتفعون. إن مَن يتمنى أن يكون سيداً على كل شيء ويستثني بقية الإخوة من الثلث أو الخمس فهو طاغية مُستبد، بربري عنيد أو وحش لا يشبع، يبتهج بالتهامه الطعام وحده دون غيره، أو بالأحرى هو أكثر قسوة من أي وحش. فالذئب لا يمنع ذئباً آخر من الفريسة، ومجموعة من الكلاب تمزق نفس الجثة، أمَّا هذا الإنسان بجشعه لا يسمح لإنسان آخر أن يُشاركه ثروته. الطعام باعتدال هو كافٍ. **لا تسقط في بحر الجشع الذي لا يُشبِّع.** إن البحَّار عندما يكون في موقف خطير لا يُدمِّر سفينته على الصخور المغمورة بل يفلت من هذا الخطر الرهيب، لأنه إن سقط فيها لا يستطيع أن ينجو أبداً.

* " لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت " (١كو١٥: ٥٣).

استعمل ما تُقدِّمه لك هذه الحياة ولا تسئ استعماله ـ بالتوافق مع ما علَّمه لكم ق. بولس* ـ وجِّه نفسك للتمتع بالقدر المناسب، ولا تأخذ متعة من عمل غير لائق، وتجنَّب نفس المصير الذي يلحق بالحيوانات والوحوش والطيور والأسماك سواء كان سهل أو صعب الحصول عليها، ذات قيمة ثمينة أو ضئيلة. وكما أن الجهد اليدوي مهما كان كبيراً لا يستطيع أن يسد بئراً عميقاً، هكذا أنت لا تقدر أن تملأ البطن بالذهاب للصيد. في تفتيشنا عن الملذات نحن لا نترك حتى أعماق البحار لتبقى هادئة، لا نذهب فقط وراء الأسماك بل نستخرج كائنات حية أخرى من الأعماق ونحضرها للأرض والهواء، فيظهر هيكلهم العظمي الصغير، ونصطاد قنفذ البحر والحبار الزاحف والكائنات ذوات الأرجل الكثيرة الملتصقة بالصخور والقواقع الصغيرة من الأعماق وكل نوع من الكائنات البحرية. نحن من أجل جشعنا نوظِّف كل وسيلة حتى نخرج هذه الكائنات ونحضرها للنور.

ما هيَ عواقب هذا التنقيب المتواصل الذي يهدف إلى إمتاع الذات؟ ينتج عنه الإثم بالضرورة، فهو يدخل كالمرض ويُخرج أي شيء صالح متبقي. فالأشخاص الذين يبسطون مائدة مليئة بكل المباهج الحسية هم مرغمون أن ينشئوا منازل رائعة، ولا يدَّخرون شيئاً في سبيل اتساعها وتجميلها. هم مُغرَمون بمواضع الاسترخاء والملابس الملونة الزاهية، ومتلهفين على الأثاث المنزلي، ويزينون موائدهم بكل نوع من الزخارف الفضية ـ البعض منها مصقول بدقة والبعض الآخر منقوش بمهارة ـ لكي تقدم متعة للعين كما للحنجرة

* " والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه. لأن هيئة هذا العالم تزول " (١كو٧: ٣١).

عند سرد قصص حول كيفية صنعها ـ أوعية وحوامل ثلاثية القوائم، أوعية مياه وأقداح وأطباق طعام وكؤوس متعددة ـ وأيضاً تضم موائدهم ممثلين وعازفين على القيثارة، وخطباء فُصحاء، ومغنيين رجالاً ونساء وراقصات، وكل نوع من الأداء الفاسق، وفتية مخنثين بشعر طويل وبنات وقحين. خلاعتهم تجعلهم أخوات لهيروديا* التي قتلت يوحنا المعمدان، بل تقتل القداسة بداخل كل منا، وتقتل العقل المحب للحكمة.

بينما تحدث هذه الحركة داخل البيت، نجد في الخارج إخوة لعازر† بلا عدد يجلسون على الأبواب، البعض مُبتلين بقروح والبعض فاقدي البصر، والبعض محاصر بأقدام كسيحة بينما البعض الآخر يسحبون أنفسهم بصعوبة إذ ليس لهم أطراف، هم يصرخون لكن لا يلتفت إليهم أحد، فصوت الموسيقى يغمرهم بأغاني المطربين، بالإضافة إلى كثير من الضحك المثير. إن أحدثوا ضجيجاً على الباب يقفز البوّاب وبقسوة يطلق عليهم الكلاب فتصيبهم بجروح وضربات. ثم ينصرف أصدقاء المسيح القانعين بوصاياه، وبدلاً من الحصول على الشبع بخبز ولحم يحصلون على اعتداء وضرب، أمَّا في داخل البيت فهناك أشخاص أغنياء يشرعون في أعمالهم، وآخرون ـ إذ يُشبهون السفن المحملة بحمولة زائدة ـ يتقيئون، بينما أشخاص آخرون يرقدون على المائدة وكؤوسهم بجوارهم. هنا تكمن خطيئة مزدوجة من الخزي: طرف ثمل تماماً وفي نفس الوقت طرف بائس جائع مطرود.

---

* " ثم لما صار مولد هيرودس، رقصت ابنة هيروديا في الوسط فسرت هيرودس " (مت١٤ :٦).

† " كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً. وكان مسكين اسمه لعازر، الذي طُرِح عند بابه مضروباً بالقروح " (لو١٦: ١٩-٢٠).

إن كان الله يلاحظ عن قُرب هذه الأشياء، فكيف ترى الحصة الزهيدة المخصصة للفقراء؟ أنت تتعجب لماذا يحدث هذا وتستنكر حدوثه لأن الإنجيل المقدس يشهد ضد كل هذه الأمثلة السيئة.

الصياح والأنين من الأعماق يزداد والله يلاحظ هذه الأعمال الشريرة التي تخرج من مثل هذه الهوَّة الكريهة. هناك مثال آخر يحكم الله فيه على شخص بموت مفاجئ، لأنه أراد أن يحوز على وجبته الصباحية (المستقبلية بالاكتناز في المخازن) مع أنه في المساء (أي نهاية حياته)، إلا أنه لم يرَ أشعة الفجر*.

جعلت أيامي أشباراً:

أمَّا أنت كإنسان فانٍ قابل للموت لا تبتهج بالمُتع الدنيوية وترفض الإيمان بالآخرة، إذ قد شابهنا أولئك الذين يسعون لمداهنة الجسد بكل وسيلة ممكنة، مثل هؤلاء هم أسياد بلا ورثة وملوك يسود نفوذهم على الأرض فقط. **يجب علينا أن نكون حريصين جداً على الحصاد، و نتطلع بشوق لفرح الحصاد ونحن في زمن الغرس.** إننا نغرس شجرة ونتوقع ظلال فروعها الرفيعة، وننتظر الثمر الوفير من شتلات أشجار الزيتون، وعندما تنضج هذه النباتات في الخريف ويقترب الموت في الشتاء، لا يتبقى بعد (على الحصاد) سنوات عديدة بل ثلاثة أيام أو أربعة فقط.

* " فقال له الله: يا غبي، هذه الليلة تُطلَب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لِمَن تكون؟ " (لو١٢: ٢٠).

لنفكر ملياً إذن في حياتنا العابرة سريعة الزوال، وفي طبيعة هذا الزمن غير المُستقرة التي تُشبه النهر المندفع الذي يحمل كل شيء أمامه للدمار، حتى ما نكمل هذه الحياة الفانية والقصيرة بدون معصية، وحيث أننا معرضين للأخطار في كل ساعة يجب أن نكون مستعدين دائماً للوقوف أمام الديان العادل.

إن صاحب المزامير المُبارَك يعطي صوتاً لهذا الشعور، راغباً في معرفة نهاية حياته مسبقاً. فهو يتوسل إلى الله لكي يعلمه عدد الأيام المتبقية له حتى ما يكون مستعداً عند الموت، ولا يكون مكروباً ـ كمسافر غير مستعد ـ في غمرة رحلته والمشاكل المرتبطة بها : " *عرفني يارب نهايتي ومقدار أيامي كم هيَ؟ فأعلم كيف أنا زائل. هوذا جعلت أيامي أشباراً وعمري كلا شيء قدامك* " (مز٣٩: ٤-٥).

أمعِن النظر في تكوين النفس الصالحة وكرامتها الملوكية، وتأمل في ملك الملوك ورب الأرباب*، واسعى أن تحيا بحسب الوصايا وأن تسلك فيها حسناً ، حتى ننال جميعاً ـ بمسلكنا هذا ـ الحياة التي لا عيب فيها في تلك المدينة السماوية، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع، الذي له المجد إلى الأبد. آمين†.

* " الذي سيبينه في أوقاته المبارك العزيز الوحيد، ملك الملوك ورب الأرباب " (١ تي ٦: ١٥).
† " لله الحكيم وحده، بيسوع المسيح، له المجد إلى الأبد. آمين. " (رو١٦: ٢٧).

العظة الثانية

إخوَتي الأصَاغِر

" ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذٍ يجلس على كرسيّ مجده. ويجتمع أمامه جميع الشعوب ... ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مُبارَكي أبي، رثوا الملكوت المُعدَّ لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعت فأطعمتموني. عطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني. عُرياناً فكسوتموني. مريضاً فزرتموني. محبوساً فأتيتم إليَّ ... الحقَّ أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم " (مت ٢٥: ٣١-٤٠)

كرسي الدينونة :

إنَّ اهتمامي الآن موجَّه للتأمل في المجيء الثاني للملك المخوف ـ كما ورَدَ في الإنجيل (مت ٢٥: ٣١-٤٦) ـ فالنفس تجزع وتُنخَّس من هذه الكلمات الرهيبة، عندما تُفكِّر مَلياً في الوصف العجيب الذي للملك السماوي الجالس على عرش مجده، فذلك العرش الذي يحمل غير المُحوى مهيب جداً وعدد لا حصر له من الملائكة واقفين حوله*. إن ذلك الملك العظيم والمخوف انعطف إلى أسفل من علو مجده الغير موصوف نحو الطبيعة البشرية. نحن نرى في هذا المشهد جميع الأجيال: أولئك الذين وُجِدوا مُنذ بداية العالم

* " وجميع الملائكة كانوا واقفين حول العرش، والشيوخ والحيوانات الأربعة، وخَرُّوا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله " (رؤ ٧: ١١)

إلى اليوم الذي تُجمع فيه الجميع نتيجة للظهور المرهوب، حيث يُحاكم كل واحد بحسب استحقاق حياته. أولئك الذين عاشوا حياة صالحة نراهم عن يمينه مبتهجين، بينما الذين عن يساره نراهم محرومين من ميراثهم ومرفوضين، سمعت صوتاً حلواً لطيفاً قائلاً للمجموعة الأولى: " تعالوا يا مُباركي أبي "، وسمعت رفضاً مروعاً قائلاً للآخرين: " اذهبوا عني يا ملاعين "*.

أمام ذلك المشهد المُحزن لهذه المجموعة الأخيرة تمتلئ النفس بالخوف لأنه يبدو عليهم أنهم غير مُدركين لأعمالهم وفشلوا في رؤية ورطتهم. إن النفس ليس لديها وقت لتتأمل أو تتحرى أمراً آخر، إلا أن الأمور الأخرى (اللاهوتية) ليست تافهة أو غير جديرة ببحثنا، كمعرفة الكائن الأبدي الذي قال: " ها أنا معكم كل الأيام " (مت٢٨:٢٠). إذا كنا نعتقد بأن السيد المسيح معنا الآن فكيف إذن سيأتي كأنه غير حاضر؟† حقاً إن كُنا " به نحيا ونتحرَّك ونُوجد " (أع ١٧:٢٨) ـ كما يقول بولس الرسول ـ فإنَّ محاولاتنا في نطاق محدودية الزمان لا تستطيع أن تستوعب أو تحوي ذلك الذي يحوي الكل. هذا الأمر ينطبق على الحاضر كما على المستقبل أيضاً، إذ أنني أتصوَّر أنَّ أي كائن قريب من العرش السماوي يتفوَّق بإدراكه على كل إدراك يتعلَّق بهذا الزمان الحاضر، لذلك أترك الكلام في هذا الأمر بغضّ النظر عن ما يحويه، وأوجه انتباهنا إلى الصلاح بشكل عام.

---

* " ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته " (مت ٢٥:٤١).

† يذكر الباحث **Hans Urs Von Balthasar** أن هذا الموضوع (كيفية استيعاب حضور السيد المسيح معنا الآن ومجيئه الثاني) كان مثاراً في ذلك الوقت، إلا أن ق. غريغوريوس بدون أن يسترسل في الموضوع أوضح أن الإدراك البشري يبقى قاصراً ولا يستطيع أن يحوي الله الغير محدود الذي يحوي الكل.

أيها الإخوة أنا منزعج جداً، ولا أنكر الهاجس المخيف الذي ينتابني، فإنني أرغب أن لا تفزعوا نتيجة للرفض، فطوبى للإنسان الذي يخشى الرب ـ كما تقول الحكمة[*] ـ لأنه إن احتقر أحد وصايا الرب سيُحتقر بدوره منه (بحسب الكلمة الحكيمة المكتوبة في الكتاب المقدس[†])، لهذا يجب علينا أن لا نفسح مجالاً لحالة عقلية ساذجة.

طريق الحياة:

إن الكتاب المُقدَّس يُعلِّمنا أن نتقدَّم في طريق الحياة[‡]، ذلك الطريق الذي يُقوِّي نفوسنا ويحييها حقاً، ما هو هذا الطريق؟ قال السيد المسيح: كنت جوعاناً، عطشاناً، غريباً، عرياناً، مريضاً ومسجوناً (مت ٢٥: ٣٥ ـ ٣٦)، " *بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم* " (مت ٢٥: ٤٠)، وبناءً على ذلك يقول: " *تعالوا يا مُبارَكي أبي* " (مت ٢٥: ٣٤). هذه الكلمات تُعلّمنا أنَّ البركة تتوقف على تنفيذ الوصايا أمَّا الدينونة فتنتج من رفضها، لنحب البركة ونتجنب الدينونة، **يجب علينا أن نُسرع ولا نجعل أنفسنا عرضةً لمثل هذه العبارة المُخيفة باختيار اللعنة، ولنقبل الآن رب البركة ونُظهر اهتماماً بالمحتاجين**، هذا أمرٌ مُلحّ بصورة خاصة لأن وصيته

---

[*] " طوبى للإنسان المُتقي دائماً، أمَّا الذي المُقسِّي قلبه فيسقط في الشرِّ " (أم ٢٨: ١٤)

[†] "وإن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي، فما عملتم كل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أعمل هذه بكم: أُسلّط عليكم رُعباً ... " (لا ٢٦: ١٥)، "ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدركك ..." (تث ٢٨: ١٥)، " إن كنتم لا تسمعون ولا تجعلون في القلب لتعطوا مجداً لاسمي، قال رب الجنود. فإني أُرسل عليكم اللَّعْنَ... " (ملا ٢: ٢).

[‡] " طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًّا، بالحجاب، أي جسده " (عب ١٠: ٢٠).

تتعلّق بكثيرين ينقصهم الاحتياجات الضرورية فيما يخص أجسادهم التي أنهكها المرض، لننتبه جيداً للأخبار السارة الخاصة بهم وبنا، لأنني أتكلّم عن أشخاص يُعانون من أمراض عسيرة، وبما أن بليتهم ضخمة جداً فسوف نحصل بواسطتهم على بركة بطاعة الوصية.

أتتحاشى إنساناً من جنسك؟![*]

المُهمة الموضوعة أمامنا تكمن في عدم رفض الوصية الروحية، يجب علينا أن لا نُحصى ضمن هؤلاء المُبعَدين، ولا أن نحاكي أولئك الذين رفضوا كما جاء بالإنجيل، أقصد الكاهن واللاوي الذين عبروا أمام هذا الرجل المسكين بدون أن يظهروا له رحمة، يخبرنا الإنجيل كيف أن اللصوص تركوه بين حيٍّ وميت[†]، **هل نُحاكي اللامبالاة التي لهؤلاء الأشخاص الذين ادينوا بسبب تجاهلهم للبلايا الجسدية؟**

ما الذي يُبيّنه هذا المشهد أيضاً فيما يتعلّق بذلك الرجل الذي وقع فريسة للصوص، وحاصره الألم؟ نرى هنا رجل أعيد صياغته من خلال الضعف وخُفّضت هيئته لشكل ذو أربعة أرجل، وبدلاً من الأيدي صار له حوافر ومخالب ينبش بها على ممر المشاة من البشر، كيف نستطيع أن نتعرّف من أثاره إن كانت لكائن بشري أم لا؟ إنسان في

---

[*] يصف ق. غريغوريوس في هذه الفقرة موقف الإنسان الذي وقع بين اللصوص في مثل السامري الصالح، وينتقل منه إلى وصف الحالة الصعبة التي كان عليها مرضى الجذام في أيامه.

[†] " إنسانٌ كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بين لصوص، فعرَّوْهُ وجرَّحوه ومضوا وتركوه بين حيٍّ وميتٍ. فعرض أنَّ كاهناً نزل في تلك الطريق، فرآه وجاز مُقابله. وكذلك لاوي أيضاً، إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله " (لو ١٠: ٣٠ - ٣٢).

وضعه المنتصب متطلع نحو السماء، ومع كون طبيعته قد منحته أيدي إلا أنه الآن يرقد مُنحنياً على الأرض صائراً بأربعة أرجل كحيوان غير عاقل، ذو شعر سميك، يصدر صوتاً أجش بسبب تنفسه الشاق وكأنه مغمور بالمياه، حتى يمكننا القول أنه صار أكثر بؤساً من حيوان غير عاقل. لقد احتفظ بكل الصفات من ميلاده حتى اليوم ولم تتبدَّل إلى شكل غريب، ثم تغيَّرت طبيعته لشكل آخر لا يشبه أطلاقاً ما اعتدنا أن نراه، فأقدام تأخذ مهمة الأيدي، يطوف على ركبتيه الشبيهة بالمطارق، اللتان إمَّا أن ينكمشوا تدريجياً أو أن يتمددوا نتيجة للزحف بشكل عشوائي.

ألا تستحي بأن يوصف شريك لك في الإنسانية بهذه الصفات؟ أنت لا تظهر رحمة لإنسان مثلك بل تزدري بنصيبه وتكره توسلاته كشخص يجب تجنبه عندما يقترب منك وكأنه حيوان متوحش. يجب علينا أن نقيم مقارنة دقيقة هنا، لأنه بالرغم من كونك إنساناً إلا أنك تشبه الملائكة باعتبار أن لك روح ـ الطبيعة الروحية التي اتحدت بالجسد ـ لماذا أذكر الملائكة؟ **لأن رب الملائكة ملك السماوات القدوس صار إنساناً من أجلك ولبس هذا الجسد حتى بواسطة لمسته الخاصة يشفي مرضك ويمنح جسدك الفاسد حياة، وأنت يا مَن طبيعتك تشابه هذا الإنسان المريض تتحاشى إنسان من جنسك!.** لا تسمحوا يا إخوتي للمشورة الشريرة (المعطلة لعمل الرحمة) أن تخدعكم، وتحقق من هؤلاء الأشخاص الذين تأخذ بمشورتهم، لأنه يجب عليك كواحد من بين البشر أن لا تدخر أي شيء وهبته الطبيعة المشتركة لمصلحة نفسك. لا تصنع تكهنات عن المستقبل (وتهتم بشأنه).

أُحكم على أهواء هذا الجسد المخالف، واصنع حكماً صائباً تجاه هذه الطبيعة المتقلِّبة تماماً التي فيها تشترك ولكنها شائعة للجميع.

لماذا تحجمون أنفسكم عن ممارسة أعمال الرحمة؟ تشاهدون أشخاصاً يهيمون ـ كما يفعل الخنزير في بحثه على الطعام ـ بملابس رثة ممزقة، معهم عُصي في أياديهم ـ عصا تستعمل كسلاح وأخرى كعكاز ـ لا يقبضونها بأصابعهم بل يربطونها في أيدهم، أكياسهم مشققة وحفنة الخبز التي يقتنونها فاسدة تماماً، موقدهم ومنزلهم وفراشهم وحيازتهم ومائدتهم وكل بقية ممتلكاتهم غير مناسبة للمعيشة. ألا يجب عليك إذن أن تنظر إلى محنتهم بعين الاعتبار؟ الإنسان خُلِقَ على صورة الله، ونُصِّب كحاكم على الأرض ووضعت الحيوانات تحت خدمته*. لقد تبدل ازدهاره إلى بؤس حتى أنك ترى هيئته فلا تتعرَّف عليها، إذ أن ما يُميِّزه كإنسان غير واضح وملامحه لا تظهر ذلك، وإن أبديت تخميناً على أنه إنسان سترفض صورته لبشاعتها، وحتى إن قارنته بوحش غير عاقل لن ترى أي توافق، لأن مثل هذه الحيوانات بسبب تماثلها نجدها مرتبطة بعائلتها وتحتشد معاً كقطيع. أولئك الذين صاروا هكذا منبوذين في نظر الآخرين لا يروا أنفسهم كذلك بسبب العوز، وإذ هم مطرودون يسعون للاحتفاظ بجماعتهم الخاصة، ألا تشاهدوا رقصاتهم الحزينة مُعبِّرين عن وضعهم المؤسف والذليل وكيف وصلوا إلى مثل هذا المأزق الكئيب؟ يصنعون عرضاً كالمشعوذين عارضين مختلف بلاياهم للمشاهدين. ينظمون أغاني حزينة ويروون قصصاً كئيبة ويصنعون من المواقف المشئومة

---

* " وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تَدِبُّ على الأرض " (تك١ :٢٦).

قصـائد، يبتكـرون روايـات لا تتعلَّـق ببـؤس الآخـرين بـل ببؤســهم الشخصي، أي خيلاء وأي روايات يبتدعون!

وما هـيَ المقـولات التـي نسـمعها عـنهم؟ يقولـون إن أعمـالهم شريرة، لماذا لا يرفضـون أعمـالهم؟ لمـاذا هـم هكـذا منبـوذين مـن المُـدن والتجمُّـعـات والأعيـاد والاحتفـالات؟ إنهـم يشـبهون القتلـة، يشبهون قتلة الآباء والأشخاص المحكوم عليهم بالنفي الدائم. لا بـل هم بالأحرى أكثر بؤساً، إذ أن القتلة مسموح لهم بالحياة بين البشر، أمَّا هؤلاء فلا يمكنهم ذلك لأنهم معتبرون كعدو عام* بلا مسكن واحد يؤويهم أو ملبس يسترهم أو مائدة مشتركة تجمعهم.

ما هذا النصيب المُفزع! فلا الجداول المتدفقـة ولا الأنهـار الجاريـة تستطيع أن تغسل التشوه الناتج مـن أمراضـهم. إن لحسـت الكـلاب المتعطشة للدم المياه لا يعتبـر النـاس القسـاة ذلـك مقـززاً ولكـن إن اقترب شخص مريض من المياه يرفضون فوراً مشاركته، ويتكلم الناس عن هذه الحـوادث بالتفصيل بـل يسـتنكرونها، بينمـا البؤسـاء يلقـون بأنفسهم عند أقدام الآخرين بسـبب الحاجـة متوسِّـلين لكـل إنسـان يقابلوه. كثيراً مـا أحزنـني هـذا المنظـر المؤسـف، وتصـيبني حـالتهم بـالقلق، وتـذكُّرهم يزعجنـي، لقـد رأيـت ورطـتهم التـي يرثـى لهـا، منظـرهم يحركنـي نحـو البكـاء، يشـبهون إنسـاناً ميِّتـاً علـى جـانبي الطريق، بل إنهم فقدوا سمات طبيعتهم المميزة ولا يحسـبهم المـرء

* الجدير بالذكر بأن العالم لم يتخلَّص من اعتبار مرض الجذام لعنة، إلا في عام ١٨٧٣م عندما رأى د. هانسن جرثومة الجذام تحت المجهر، ومن ثم بدأ الطب في أبحاثه إلى أن وجد العلاج بعد نحو مائة عام.

بعد بشر، إذ هم متروكين في هذه الحالة المزرية، يكرهون أنفسهم ويلعنون يوم ميلادهم ويحتقرون ذلك اليوم الذي فيه بدأوا التعرف على الحياة، يستحون أن يدعوا أنفسهم بشر حتى لا يهينوا الطبيعة الإنسانية، يعيشون في تعاسة دائمة وينوحون بشكل متواصل.

عندما يتطلَّعون لأنفسهم يكون لديهم دائماً سبب للحزن، فهم في حالة مُزرية بل يعتبرون أن أجسادهم تلاشت، إذ أن المرض - الشيء الوحيد الباقي لهم - يُبددهم تدريجياً، مثل هؤلاء المبتلين يرون تلك البلايا وقد لا يكون لديهم مقدرة على الإبصار لأن بصرهم مُتلف، يلتمسون أن يصفوا حالتهم ولا يستطيعون لأنَّ المرض قد عوّق قدرتهم على الكلام، يبتغون أن يأكلوا طعاماً ولا يستطيعون لأن أفواههم مُقرّحة، وبكل أسف ينقصهم الإحساس تماماً مثل الموتى إذ أن حواسهم قد دُمِّرت. كيف يمكن لمثل هؤلاء البصر أو الشم أو اللمس؟ وماذا عن الحواس الأخرى التي تفقد قوتها تدريجياً أو تصير متلفة بالتمام؟ في كل هذه الأوضاع يهيمون كالحيوانات وفي بحثهم عن مرعى أخضر يستبدلون طبيعتهم الإنسانية، يتحمَّلون مخاطر عدة من أجل الحصول على الطعام بإظهار بؤسهم لكل شخص متوسِّلين أو بالمقايضة، البلوى هيَ التي تقودهم، **وفي المصاعب نجدهم يساندون بعضهم بعضاً، كل شخص على قدر ما يستطيع يساند زميله الأكثر بؤساً باستخدام أطرافه، وهذا لا ينطبق على فرد واحد بل نرى الجميع بحكمة يوظِّفون الشِّدَّة، ويمكن لأي شخص أن يرى ذلك عندما يجتمعون معاً، كل إنسان منهم يظهر الرحمة ويُقدِّم العطف، ومن خلال هذه**

الخدمة المتبادلة تصير محنتهم فرصة لتقديم العون، فهناك شخص بأيادي مشوهة وآخر ببطن متورِّم، بينما آخر بوجه مشوه وآخر بطرف ذابل. إن أي شخص يحيا بهذا الحرمان يُقدِّم لنا حالة من الإعاقة الشديدة.

ما الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الأمثلة؟ هل ناموس الطبيعة هو ناموس شرير؟ هل يُمكن فقط أن نسرد قصص مأساوية عن بلايا البشر، نطريهم بإفراط ثم نتكلّم بحماس عن ذكراهم؟ ألا يجب علينا أن نظهر تعاطفاً واهتماماً؟ يجب أن تترجم الكلمات إلى أعمال، فالرب لا يقول أن الخلاص يتألّف من كلمات بل من الأعمال التي تؤدي إلى الخلاص*، وبالتالي نحن ملتزمين أن نتبع هذه الوصية. لا تدع أحداً يقول: يكفي إرسال بعض الطعام لأناس ليس لهم أي علاقة بنا، هذا لا يظهر الرحمة بل هو استعراض ظاهري غايته صرف هؤلاء الأشخاص من أمامنا. ألا تضعنا طبيعة معيشتهم في خزي وتجعلنا نشابه الكلاب؟ إن الصياد يتجنب جُحر الحيوانات الرضّع، والمُزارع يعرف كيف يعتني بالعجول ـ يمكن تقديم أمثلة كثيرة كهذه ـ بل حتى المسافر يغسل أقدام حماره ويعتني بجراحاته وينظف زريبته من الروث، **فهل لنا أن نرفض ونتجاهل شركائنا في الطبيعة الإنسانية؟! لا يا إخوتي لا، دعونا لا نتخذ مثل هذا الموقف نحو شريكنا في الإنسانية؟**

---

* " ليس كل مَن يقول لي: يارب، يارب! يدخل ملكوت السماوات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات " (مت٧: ٢١).

يجب أن ننتبه للمشورة التي نعطيها ونعرف حقيقة ذواتنا، لأن البشر ليس لهم سيادة فوق طبيعتهم البشرية، " *بل دخول الجميع إلى الحياة واحد* " (حك٦:٧)، والأكل ضرورة للجميع، والجسد البشري أيضاً مؤلف بطريقة واحدة وله نهاية واحدة" *وخروجهم سواء* " (حك ٦:٧)، ووجب على الجميع الموت والتحلل، ولا يمكن لأي شيء مُركَّب أن يستعيد حالته الأصلية، إذ أن الجسد يظهر كفقاعة لمدة قصيرة فيُسكِّن أرواحنا، ثم لا يبقى أي أثر لذلك التمدد العابر (الجسد الذي يفنى بالموت)، لا يبقى له ذكرى إلى الأبد في الأعمدة والأحجار والنقوش.

المرض ليس شيئاً معيباً:

تذكر هذا على الدوام، لأنَّ الرسول بولس يقول:" *لا تستكبر بل خَفْ* " (رو١١:٢٠). ترى هل تدرك شدة هذه العبارة؟ أتقول أنه يجب عليك أن تهرب من أمام المرض؟ هل يصح أن يُجرَّم إنسان صارت حالة جسده فاسدة ومُتعفِّنة بسبب تلوث دمه؟ يجب علينا أن ننصت للأطباء الذين يُعَلِّمون عن طبيعة المرض، ما هو الخطأ في كون مادة الإنسان مُتحرِّكة ومُتقلِّبة وعرضه للمرض؟ ألا ترى أنه يوجد من بين الأصحاء، أشخاص كثيراً ما يعانوا من الأمراض والدمامل أو التهابات التي تتطور إلى تقرح واحتقان وعجز؟ ماذا يجب علينا أن نفعل؟ ألا يجب علينا أن نُقاوم المرض الذي يُصيب عضو جسدي؟ ونهتم أيضاً بعلاج العضو المُصاب من أجل صحة الجسد كله. المرض إذن ليس شيئاً معيباً والعلاج يعيد الصحة للعضو المكروب.

اتَّخِذ إله الكل صديقاً لك:

لماذا ننكمش أمام تلك الأمور (خدمة المرضى)؟ يجب علينا أن نستعد حتى لا نكون في عداد أولئك الذين سيقول لهم رب المجد: *" اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية ... بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا "* (مت٢٥: ٤١ ـ ٤٥). إن انتبه الناس لتلك الكلمات، سوف لا يشعرون بالامتعاض تجاه أولئك المُبتَلين، وسيهتمون بنبذ التقزز من أنفسهم ويأخذون حميَّتنا بعين الاعتبار لأجل العناية بأولئك المنبوذين. **إن إيماننا بأن وعد المسيح صادق يُلزمنا أن نطيع الوصايا، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون لإنسان رجاء. الإنسان الغريب والعريان والجوعان والعاجز والمسجون هو الإنسان الذي قصده الإنجيل، الإنسان الطوَّاف العريان والمريض الذي ليس عنده حاجاته الضرورية والذي يقف في احتياج بسبب الشِّدَّة، الإنسان الشريد الذي بلا مسكن وبلا عمل الذي يفتقد ضرورات الحياة، والذي يزيده سجنه بالمرض بلاءً. إن تكميل الوصايا يختص بهؤلاء الأشخاص[*]، لذلك أقرض الرب كل ما لديك بإظهار الرحمة[†]. لماذا أنت عنيد هكذا فيما يخص حياتك؟ إن ذلك الشخص الذي لا يرغب في أن يتخذ إله الكل صديقاً له لن يقتني شيئاً سوى عناده ضد نفسه**، وكما أن هناك شخص يُنفِّذ الوصية ويخضع لها هناك آخر يرفض تنفيذها بعدم ممارسة أعمال الرحمة.

---

[*] " المحبة لا تصنع شراً للقريب، فالمحبة هي تكميل الناموس " (رو١٣: ١٠).

[†] " مَن يرحم الفقير يُقرِض الرب، وعن معروفه يُجازيه " (أم١٩: ١٧).

" *احملوا نيري عليكم* " (مت١١:٢٩)، تُشبِّه هذه الآية تنفيذ الوصايا بالنير، لنصغي باهتمام لذلك الذي يستدعينا، ونتحد بالمسيح بحمل نير المحبة، ليتنا لا نرفض حمله فهذا النير حلو وخفيف ولا يجذبنا بثقله لأسفل. " *مَن يزرع بالبركات فبالبركات أيضاً يحصد* " (٢كو٩:٦) ـ كما يقول الرسول ـ عيدان ذرة كثيرة تنتج مما ننثره، وحقل وصايا الرب وافر وغلة بركته كثيرة جداً، أتريد أن تدرك مقدارها؟ إنها تبلغ إلى علو السماء، لأن أي شيء تصنعه في هذا المجال يحمل أثماراً في الكنوز المُعدَّة لك في السماوات*.

يجب ألا ترهبك هذه الكلمات، ولا تتصوَّر أن صداقتك مع هؤلاء البؤساء شيء يعامل باستخفاف. اليد قد تكون مشوهة لكنها ليست عاجزة عن مد يد المساعدة. العين قد تجري منها مواد سائلة لكنها تبصر بواسطة الروح نِعَم غير مرئية، لذلك **لا تحتقر شكل الجسم الغير مُلائم، انتظر فترة قصيرة وسوف ترى ما يفوق كل عجب، لأن أي شيء مادي هو في حالة انصهار وسوف ينتهي، أمَّا الصلاح الغير مرئي فإنه يبقى إلى الأبد، فعندما تتحرر الروح من ذلك التشابك الأرضي الفاسد سوف تضيء بجمالها الذاتي.**

* " بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، حيث لا يُفسد سوسٌ ولا صدأٌ " (مت٦:٢٠).

الغني ولعازر المسكين:

يُمكننا أن نتحقق من ذلك من خلال مثل الغني ولعازر، نرى الغني المتخم بعد موته لا يحتقر يد الإنسان الفقير، أمَّا لعازر المسكين الذي تحمَّل المرض في حياته نراه الآن مُستحقاً للمياه، بينما الغني يتوق إلى نقطة مياه يُبرّد بها لسانه* ـ لن تتوق إلى ذلك لو كنت تنظر إلى سمات الروح العالية من خلال الجسد الضعيف ـ هل يمكن للرجل الغني الآن أن يسترد حياته ويُغيِّرها؟! (بالطبع لا). أي مقدار من التنعُّم صار للمسكين في هذه الحياة الأخرى؟! وما هو النصيب المُعدّ لروح ذلك الرجل الغني الشرير؟ لو فرضنا أن حياته أُعيدت له، أي طريق كان يُقبِل عليه؟ هل سيكون من بين الموسَرِّين أم المساكين؟ بلا شكّ سيكون اختياره أن يكون ضمن المجموعة الأخيرة، لكونه يتوسَّل من أجل إرسال رُسل من الفردوس لإخوته حتى لا يصيبهم ما أصابه نتيجة لهذا التعجرف الذي يبتهج بأمور الجسد، طريق اللذة الناعم الذي ينزلق فيه الإنسان إلى هاوية الجحيم.

لماذا لا نأخذ هذه الأمثلة للقلب؟ لماذا لا نسعى وراء ذلك الواجب المُثمر الذي نصحنا به الرسول بولس: لكي تكون في هذا الوقت فُضَالتكُم لإعوَازهِم كي تصير فُضالتهُم ـ بعد هذه الحياة ـ

* " يا أبي إبراهيم ارحمني، وأرسل لعازر ليَبُلَّ طرف إصبعه بماء ويُبَرِّد لساني، لأني مُعذَّبٌ في هذا اللهيب " (لو ١٦: ٢٤)

لخلاصكم[*]. إذا رغبنا في الحصول على الرأفة يجب علينا أن نُقدِّمها أولاً. إذا أردنا أن نتلقى في المستقبل يجب علينا الآن أن نخدم أولئك الذين هم في ظروف بائسة. إذا ابتغينا أن ننال من خلالهم مسكناً أبدياً يجب علينا أن نقبلهم الآن. إذا أردنا أن نشفي خطايانا يجب علينا أن نعتني بأمراضهم.
" *طوبى للرحماء لأنهم يُرْحَمُونَ* " (مت٥:٧).

وصية المحبة نافعة للحاضر والمستقبل[†]:

قد يستنكر أحد وصية الله وكأنها نافعة للمستقبل (ومُضِرَّة للحاضر)، وتوصي بالمشاركة في آلام المساكين الآن خوفاً من نفس المصير المُعَدّ للمُستهترين الذين يهربون منهم. أي نطق أو كلام أو تظاهر أو لامبالاة تختص بوصايا الله كهذه ليست إلا أخيلة وأكاذيب، لأن السلوك بحسب وصايا الله لا يستلزم الخوف، ولا تقدر آفة أن تعالج آفة أخرى.

ما هيَ الفائدة التي نجنيها إن لم نجاهد لتحفيز الناس على ممارسة العادات الجيدة التي تتعلّق بعلاج كل من الشباب وكبار السن؟ لا شيء مطلقاً. بعض الأمراض مثل الأوبئة والبلايا الخارجية

[*] بل بحسب المساواة. لكي تكون في هذا الوقت فضالتكم لإعوازهم، كي تصير فُضالتهم لإعوازكم، حتى تحصل المساواة " (٢كو٨:١٤)

[†] ق. غريغوريوس في هذه الفقرة يحث المؤمنين على العناية بالمرضى وعدم الخوف من العدوى، مؤمنين بأن الوصية نافعة وصالحة للحاضر كما للمستقبل، إلا أن هذا لا يمنع المؤمن المعاصر بأن يأخذ بتعليمات الأطباء فيما يخص المريض الذي يخدمه.

المشابهة تحدث بسبب المياه الملوثة أو الهواء الملوث الذي يُصيب ويلوث الأشخاص، والذين ينتقل من خلالهم لآخرين - أنا لا أعتقد أن المرض ينتقل للأصحاء بل كل شخص مُعرَّض لهجومه العام - لأن علة المرض تنتشر للآخرين. الأمراض تنشأ هكذا من داخل أجسادنا، الدم يتلوث بسبب تراكم الأبخرة الفاسدة فينتج المرض. هذه الحقيقة تُعلِّمنا درساً قيماً: هل العادات الصحية تتدهور إلى مرض إن سعى الشخص بجدية نحو الشفاء؟ بالطبع لا، لذلك في أغلب الأحيان لا ينتقل المرض من المرضى إلى الأصحاء.

إن كانت وصية الله وسيلة ثمينة لإعداد ملكوت السماوات، وإن كان شفاء الجسد له أي قيمة، فما الذي يعوقنا عن ممارسة وصية المحبة؟

صعوبة الوصية وعذوبة النير:

هل تزعم بأن الكثير يمقتون بشدة المحن والتعب؟ ربما هذا صحيح وأنا أقبل صعوبة الوصية، لكن هل تتصور أن هناك عمل يمكن أن تُقدِّمَهُ يخلو من الشدة، خاصةً إن كان إنجازه يتطلَّب ممارسة الفضيلة؟ لقد حدَّد الناموس الإلهي مقدار كبير من الجهد والتعب من أجل تحقيق رجائنا السماوي، فالإنجيل يُبيِّن أن الطريق المؤدي إلى الحياة هو طريق صعب ووعر ويحصرنا من كل جانب، " *ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة* " (مت ٧:١٤). ما الذي يجب علينا أن نفعله إذن؟ **هل نرفض الرجاء المُبارَك بسبب صعوبة**

الطريق؟ دعونا نسأل الشباب إن كانت العفة سهلة أو كبح الرغبات بحرية شيء لا يتطلب جهداً، وعندئذ سوف نتشبث بذلك النير الحلو والهين.

أنتراجع أمام مشقة الفضيلة؟ ألا يتضح لنا أهمية هذه الأتعاب في منعنا من السير في الطريق الواسع الرحب المنكب على الشر. يقول السيد المسيح: " *أُدخلوا من الباب الضيق* " (مت٧:١٣). الفضيلة تُنظِّم حياتنا بحسب التزامنا بها إلا أن عاداتنا قد تدفعنا إلى رفض وصية الله. سوف نعالج الرفض الفطري الذي يشعر به الأصحاء جسدياً بشرط أن ننكَبَّ نحن على تنفيذ وصية المحبة بمواظبة. إن العادات بالفعل قوية وتسعى دائماً وراء اللذة وترفض الصعوبات. **لا يظن أحد إذن أن الوصية صعبة بل هيَ بالحقيقة نافعة نظراً لأن الربح الذي يأتي من وراء تنفيذها عظيم، والجهد المبذول هو جهد تافه إذا ما قورن هذا بالربح، وأي عمل مجهد يصير مع الوقت حلواً من خلال الممارسة.**

يجب علينا أن نظهر تعاطفاً مع الأشخاص البؤساء المحرومين من الصحة. إنها مُبادرة رائعة أن تكون أول مَن يُقدِّم الرحمة لهؤلاء المُحاصرين بالأمراض، إذ أن الجميع يشترك في طبيعة إنسانية واحدة. وبما أن الإنسان قد يتحوَّل عن فعل الصلاح، لذلك يجب علينا أن نكون على الدوام منتبهين لوصايا الإنجيل لكي نُنفِّذ كل ما هو مطلوب منا.

رحلة هذه الحياة:

قد نكون مُجهَّزينَ جيداً في السفر إلا أنه يجب علينا أن نمد أيادينا للأشخاص التي تحطمت سفينتهم. نحن جميعاً نتشارك في البحر والأمواج وشدة التيار المندفع، بالإضافة إلى العمق والصخور والجروف الناتئة داخل البحر وكل شيء آخر يملأ رحلة حياتنا بالخوف. بينما وأنت مُعافى وصحيح وتطوي بحر الحياة في أمان لا تعبر هكذا بدون إظهار أعمال الرحمة لأولئك الذين عانوا من تحطم سفينتهم من قبلك. مَن بجانبك يضمن لك توفير رحلة ناجحة على الدوام؟! أنت لم تصل بعد لميناء الراحة، ولم تعبر بعد الأمواج المتلاطمة، ولم تحقق بعد الأرض الثابتة، بل مازلت تسافر في بحر هذه الحياة. إنك تختبر اختبارات مماثلة لأولئك الذين هم في محن وتساعد أولئك العابرين معك في نفس الرحلة، بل نحن نرافق كل إنسان بواسطة الروح القدس في رحلة هذه الحياة إلى ميناء الراحة.

لتكن الدفة التي تقود رحلتنا هيَ تنفيذ الوصايا والسلوك بمحبة، لكي نبلغ مع أولئك السالكين باستقامة أرض (التي تحدَّث عنها) الإنجيل التي تحتوي على المدينة العظيمة التي صانعها وبارئها إلهنا الذي له المجد والقدرة إلى الأبد. آمين.